ولما فتح الختم الخامس

ونحن نزف شهداء الكنيسة البطرسية إلى السماء نتذكر قول يوحنا الحبيب في رؤياه: "ولما فتح الختم الخامس رأيت تحت المذبح نفوس الذين قتلوا من أجل كلمة الله ومن أجل الشهادة التي كانت عندهم" (رؤ٦:٩). والختم الخامس هو أحد سبعة ختوم مختومة على سفر مكتوب من الداخل ومن وراء كان موجوداً على يمين الجالس على العرش. هذا السفر لم يستطع أحد في السماء ولا على الأرض ولا تحت الأرض أن يفتحه ويقرأه ولا أن ينظر إليه. ولكن لما رأى يوحنا الخروف القائم كأنه مذبوح قد أتى وأخذ السفر من يمين الجالس على العرش تهلل السمائيون مرنمين ترنيمة جديدة قائلين: "مستحق أنت أن تأخذ السفر وتفتح ختومه لأنك ذبحت واشتريتنا لله بدمك من كل قبيلة ولسان وشعب" (رؤ٥:٩). وبحسب تفاسير الآباء فإن هذا السفر هو الكتاب المقدس بعهديه الذي لم يستطع إتمام نبواته وكشف أسرار الخلاص المذخرة فيه سوى ابن الله من خلال ذبيحة الصليب.

وكما رأينا، فإن الختم الخامس يخص كل الشهداء الذين استشهدوا من أجل شهادتهم لاسم المسيح. لكن السؤال البديهي الآن هو لماذا تعين أن يبقى الاستشهاد ختماً لم يستطع أحد أن يفكه، مثله مثل باقي الختوم السبعة، سوى الخروف المذبوح؟ ولماذا تعين أن يكون الاستشهاد ختماً يختم أسرار الخلاص في الكتاب المقدس بحيث لا يمكن فتحها وقراءتها ولا النظر إليها دون أن تُفتح ختومه السبعة متضمنة ختم الاستشهاد؟ يعني ذلك أن الاستشهاد ختم لا تُفتح أسرار الخلاص إلا بفتحه، ولكن في نفس الوقت بدون الخلاص لا يمكن فتح ختم الاستشهاد!!!

الإجابة واضحة في الآية ذاتها أنهم "قُتلوا من أجل كلمة الله ومن أجل الشهادة التي كانت عندهم". فالشهيد هو شاهد على الحق الموجود في الكلمة، وخاتم بدمائه على صدق وعود الخلاص. وإلا كيف يبذل أحد حياته عن غير يقينية الخلاص؟ وإن كان السيد المسيح قد وصف المؤمنين به بأنهم نور العالم فإن الشهداء باستشهادهم يصيرون أكثر أنوار العالم توهجاً والدليل على ذلك العدد الهائل للذين آمنوا بالسيد المسيح بسبب استشهاد الشهداء. هكذا تنفتح عيون الكثيرين على أسرار الخلاص الخفية من خلال

الشهداء. وعندئذ يكون لسان حال كل شهيد هو قول بولس الرسول: "وأنير الجميع فيما هو شركة السر المكتوم منذ الدهور في الله خالق الجميع بيسوع المسيح" (أف٣:٩)

أما لماذا لم يستطع أحد أن يفك ختم الاستشهاد سوى يسوع المسيح ذاته فلأن عمل المسيح الخلاصي هو محور شهادة كل شهيد ونبع ثباته وصموده أمام طغيان معذبيه. فليس الاستشهاد شجاعة أدبية، ولا هو حماسة بطولية بل هو طاقة حب جبارة تلهب قلب الشهيد نحو فاديه المصلوب عنه الذي أحبه أولاً. وكما تقول كلمات الترنيمة العذبة: "...لو دقتوه تعرفوا ليه الشهدا زمان ما تركوه"!!